المقاومة وعناصرها في شعر فدوى طوقان وطاهرة صفار زادة (دراسة مقارنة بين الأدب المقاوم الفلسطيني والإيراني)

د. ليلي أصل ركن آبادي
جامعة بيام نور (طهران)
rokn56@yahoo.com

ملخص:

كان الشعر المقاوم في كلٍّ من الأدبين العربي والفارسي نموذجاً لعدم الرضوخ والاستسلام أمام العدو المعتدي. كان لفدوى طوقان باعتبارها شاعرة فلسطين المقاومة ولطاهرة صفار زادة بصفتها شاعرة الثورة الايرانية قدم راسخة في مسيرة الثورة الفلسطينية والإيرانية على الترتيب. حاولَتِ الكاتبةُ خلال هذه المقالة معتمدةً على المنهج الوصفي - التحليليّ أن تبرز المضامين المشتركة في شعر الشاعرتين المقاوم، مِثْل الحثِّ على الجهاد في سبيل الوطن والقيمِ الاسلامية، ووصف ما يرتكبه المحتل من ظلم وتعدٍّ ووصف الشهادة ومكانة الشهداء، وأن تبيّن فوارق الشاعرتين فيما يخص شعرها المقاوم كلغتهما الشعرية، بحيث تتصف لغة صفار زادة في بعض الأحيان بالابتذال والسطحية وبالهبوط إلى مستوى لغة السوقة، على نقيض من لغة فدوى طوقان، حيث هي باقية على قوّتها ولم تلوّثه السطحيّةُ والابتذالُ يوماً من الأيام، بالإضافة إلى فوارق خاصة فيما يخص المضمون، مثل صبو الشاعرة صفار زادة إلى الاستشهاد في سبيل الله دون الشاعرة الفلسطينية وغيرها من الفوارق .

الكلمات الرئيسة: المقاومة، شعر المقاومة، فدوى طوقان، طاهرة صفار زادة، أدبيّ العربي والفارسي.

كلمات مفتاحية: النموذج المعرفي، التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، أسلمة المعرفة، توطين المعرفة، الموضوعية العلمية.

Abstract:

The Resistance and Its Elements in the Poetry of Fadwa Touqan and Tahereh Saffar Zadeh (A Comparative Study between Palestinian and Iranian Resistance literature).

Key words: The resistance, the poetry of the resistance, Fadwa toucan, Tahira Saffar Zada, Arabic and Persian literature.

Keywords: The paradigm, Islamic integration of social sciences, Islamisation of knowledge, localisation of knowledge, scientific objectivity.

مقدمة:

المقاومة المقدسة والدفاع والنضال عن الوطن وعن الممتلك مفهوم يشترك فيه كافة الملل والأقوام، وهي في الحقيقة ردة فعل طبيعية أمام أي تعدٍّ وتطاول! والأدب المقاوم نتاج فكر رسالته زجر العدو ودحره عبر اللغة والكلمات، ذلك أنّ السلاح قد يصيبه الفلول، فلابد من لغة، بل من أدب، يبثُّ في المجاهدين والمتسلّحين روحَ المعنوية لتَتَحَدَّ السلاحُ من جديد! فالأدب المقاوم جزء لايتجزّء من الأدب، غير أنّ هذا المصطلح كما سنبيّن في موضعه شاع خلال العقود الأخيرة وخاصة خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين أكثرَ من أيٍّ وقتٍ مضى. نتطرق خلال السطور التي بين أيديكم إلى مختلف وجوه المقاومة في شعر فدوى طوقان1، باعتبارها الممثلة لشعر الفلسطيني المقاوم وطاهرة صفار زادة2، باعتبارها المتمثّلة لشعر ايران المقاوم إبان العصر الشاهنشاني المقيت. عاشت الشاعرتان في وقت متزامن من بعضهما وبينهما من المشتركات والافتراقات ما دفع الباحثة إلى البحث في دواوين الشاعرتين معتمدة على المنهج الوصفي – التحليلي مجيبةً على التساؤلات التالية: ما هي عناصر المقاومة في شعر كلٍّ من طاهرة صفار زادة وفدوى طوقان؟ وما هي اشتراكات الشاعرتين وافتراقاتهما فيما يخص بلورة عناصر المقاومة في مسيرتهما الشعرية؟

- الخلفية والدراسات المسبقة:

صنّفت جملة من الأعمال حول مفهوم المقاومة وبلورتها في شعر فدوى طوقان وطاهرة صفار زادة، ذلك أنّ المقاومة من أبرز المفاهيم التي كانت ولاتزال محطّ انتباه العلماء والنقاد، بيد أنّ دراسة مستفيضة كانت قد تناولت موضوع المقاومة في شعر كلٍّ من الشاعرتين فدوى طوقان وطاهرة صفار زادة وتطرّقت إلى جملة وجوه المقاومة في شعرهما مع ما فيها من اشتراكات وفوارق لم تخرج بعد، وهذا لايعني أنه لم يكتب كتاب أو مقالة بهذا الصدد، بل الأعمال كثيرة، غير أنه يتضح للمستقري فيها أنها لم تف مختلف جوانب القضية حقها وتركت جملة من المشتركات الخطيرة والفوارق الحاسمة بين الشاعرتين، هذا هو الحال في مقالة " بررسی تطبیقی مفاهیم مقاومت وپایداری در اشعار فدوی طوقان وطاهره صفار زاده" لعبد الأحد غیبی وفرزانه أحمری، والمقالة منشورة في رقم 13 لمجلة "ادبیات پایداری"، بعام 1394 الشمسیه (2015م) في إيران. ههنا نشير إلى جملة من الدراسات التي اقتربت موضوعاتها بموضوعنا الحالي. "بررسی سنجشی نمادهای پایداری در شعر فدوی طوقان وقیصر امین پور" مقالة لسيدة صابرة سياوشي ومولا شكاري مير، في رقم 19 لمجلة "کاوش نامه ادبیات تطبیقي"، بعام 1394 (2015م) في إيران. والمقالة مخصصة لدراسة شعر فدوى طوقان مع الشاعر قيصر أمين بور ولاتمت إلى طاهرة صفار زادة بصلة. "فلسطين وتجلياتها في شعر فدوى طوقان المقاوم" مقالة لسيدة رقية مهر نجاد، طبعت في مجلة "دراسات الأدب المعاصر" الإيرانية، لعام 1432 هجري، في عددها العاشر، والمقالة مخصّصة لتجليات فلسطين في شعر فدوى طوقان المقاوم فحسب، فلا تندرج ضمن الأعمال المقارنة. والحكاية هي نفسها في مقالة "جلوه های مقاومت و پایداری در اشعار طاهره صفار زاده" لفاطمه مدرسي وزهرا خجسته مقال، حيث تناولت باحثتاها بعض عناصر المقاومة في شعر طاهرة صفار زادة فحسب.

2- ظهور حركة شعر المقاومة في الأدبين الفارسي والعربي في سطور:

تاريخ المقاومة في الأدب العربيّ والفارسيّ أكثرُ امتداداً وتجذّراً من أن نتقيّده بزمان، حيث أنّ الشعر الفارسيّ والعربيّ خاصة منذ تلك السنين الأولى من ظهوره، يتضمن في طيّاته وجوهاً من المقاومة، ولكنه لايندرج ضمن الأدب المقاوم بمعناه الحقيقي. هناك خلاف طويل المدى بين النقاد فيما يخص ظهور الأدب المقاوم في الأدب العربي بمعناه الاصطلاحي بين قائلٍ إنّ ظهوره في الأدب العربي يعود إلى ثورة الشعب الجزائري في المغرب العربي أمام الاستعمار الفرنسي (1) وقائلٍ إنه ظهر بعد ثورة براق بعام 1929وأحداثها المختلفة كيوم الإعدام في سجن عكا وقائلٍ إن ظهوره يرتقي إلى إبان احتلال الأراض الفسطينية

بيد الكيان الصهيوني وإرساء دعائم الحكومة الاسرائيلة هناك منذ عام 1947، وقائلٍ إن الأدب المقاوم في الممالك العربية أخذ يظهر بعد النصف الثاني من القرن العشرين، أي متزامنا مع حرب جون 1967، وقبل تلك السنة كانت هناك تعابير مختلفة ک " أدب المعركة "و" أدب الحرب" و" أدب النضال" إلخ، غير أنّ بعد الانتفاضة الأولى والثانية قد احتفظ أدب المقاومة اسمه ومكانته دون تغيير(2). والحق أن الأدب المقاوم شاع وانتشر في الأدب العربي بعد عام 1967 انتشار النار في الهشيم، غيرأنّ ظهوره على الساحة الفلسطينية والعربية يعود إلى أعوام 1948(3). يرتقي ظهور هذا الضرب من الأدب في إيران عند الأرحج إلى أعوام 1340ش (1961م) وبعدها، حيث أخذت الثورة الايرانية تندلع شيئا فشيئا، فأخذ ينشد الشعرَ عدد من الشعراء اليساريين كسياوش كسرايي وه.الف سايه والشعراء الاسلاميين الملتزمين كموسوي غرمارودي وطاهرة صفار زادة. فالشعر المقاوم الايراني هو ما قيل في أجواء الثورة الايرانية في تلك البرهة الخاصة من التاريخ الإيراني، وتشير إلى النضال الذي بذله الشعب في سبيل حريته ودحر السياسيين الطاغين، وإلى بقية الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية التي ظهرت على الساحة الإيرانية آنذاك (4). سلّطت الباحثة خلال المقالة التي بين أيديكم الضوء على ما بين الشاعرتين من مشتركات مضمونيّة في شعرهما المقاوم، ثم على فوارقهما فيما يخص المقاومة وعناصرها، وهاكم التفصيل:

3- المقاومة وعناصرها في شعر فدوى طوقان وطاهرة صفار زادة - الاشتراكات:

3-1- الدعوة إلى استنقاذ الوطن من مخالب الأعداء المتربصين به:

كانت طاهرة صفار زادة ممن شاركت في الثورة الايرانية جسداً وقلما. في جملة من أشعار قالتها عن الثورة الايرانية والشعب المناضل، تدعو أبناء الشعب إلى استنقاذ الوطن من ورطة الهلاك وقبضة الغاشمين المتربعين على عرش السلطة. في المقطع التالي تصور الشاعرة حقدها وحقد الشعب الثورويّ الايرانيّ تجاه حكومة الطغيان وهذا حقد لاينضب في قلوبهم إلا بعد استئصال شأفة هؤلاء الظلمة:

بيهوده مي شتابد اين ماشين/ بيهوده زوزه مي كشد اين جانور/ در گوش ما وخيابان/ اين آتش نهفته به خاكستر/ اين قهر خلق ستمديده/ در طول قرن ها به شعله رسيده/ اين شعله بزرگ كينه/ با آب سرد/ هرگز نشانده نخواهد شد/ هرگز فرو نمى نشيند (5). ترجمة: عديمة الجدوى تنطلق تلك السيارة/ ودون جدوى تعوي هذه الدابة في آذاننا وفي شوارعنا/ فهذه اللهب المستورة تحت الرماد/ وهذا الشعب المضطهد المظلوم/ اندلعت نيرانها بعد قرون/ فذلك اللهيب الكبير من الحقد الدفين/ لن يخمد بالماء البارد يوماً!

فقد رمزت الشاعرة عن حركيّة الحكومة الفاسدة في قمع المناضلين، بالسيارة (ماشين) المتحركة مرّة، وبدابّة فتاكةٍ عاوية مرّة ثانية! غير أن هذه الحركية الفاسدة وهذا العواء الفارغ في قمع الحق لايلبثا أن يزولا بإذن الله، بعد أن اندلعت ألسنة نيران الشعب الثوروي. وفي أبيات أخرى تصور صفارزادة أيام الثورة ومقاومة الشعب الذي أهدى بالنفس والنفيس في سبيل ثورته، فنزل إلى الشوارع استردادا لحقه. والملفت للنظر أنّ الشاعرة كثيرما تمزج مفاهيم الثورة الإيرانية وحقيقتها بمفهوم ثورة الحسين عليه السلام ومقاومة أصحابه الأتقياء، حيث ترى أنّ طريق الثورة الإيرانية هي طريق الحسين عليه السلام، مثل قولها:

رفتن به راه مي پيوندد/ وچشم هاي منتظر رهروان/ هميشه رنگ رسيدن دارد/ ... راه حسين/ راه اقامه حق است/ واين طريق يگانه/ يگانه مرهم تاريخ زخم هاي ملت ماست (6).

ترجمه: الذهاب يلتحق بالطرق/ وعيون المارّة المحدقة/ تترقّب الوصول دوماً/ ... طريق الحسين/ طريق إقامة الحق/ وهذا الطريق الوحيد/ هو المرهم الوحيد لجروح شعبنا.

وأما فدوى طوقان فهي ترى ما ترى في الأرض الفلسطينية من احتلال واستعمار خانِقَيْنِ، فتدعو أبناء الشعب وبني جلدته ببذل النفس والنفيس، فتشيد في أبيات كثيرة مقاومة المجاهدين ووقوفهم في وجه العدو المعتدي، والحق أن للشاعرة يداً طولى في استمرارية مسيرة الجهاد في فلسطين. فتدعو إلى أن يطرح

الشعبُ الكلامَ الفاضي، لأنّ الحلّ الوحيد في المسألة الفلسطينيّة هو النضال والكفاح المسلّح، فالعدوّ لايعرف إلّا ذلك السلاح، فتقولُ:

أجلس كي أكتب، ماذا أكتب؟/ أما جدوى القول؟/ هل أحمي أهلي بالكلمة/ هل أنقذ بلد بالكلمة!/ كل الكلمات اليوم/ ملح لا يورق أو يزهر/ في هذا الليل... (7).

فلاتؤمن الشاعرة إذن بحرب الكتابات والشعارات ولا بإقامة المؤتمرات والندوات، لأنّ الكلمة لن تنجُ الشعبَ المضطهد وفسطين العزيزة من مخالب المحتل، لأنّ الكلمات ليست إلا مجرد حبر على ورق، بل تؤمن بحرب السلاح وبأن يستعدَّ الشعبُ الفلسطيني لمواجهة المحتل، فتدعو إلى ذلك في جملة من القصائد، مثل قصيدة "الفدائي والأرض"، فهي دعوة صراح إلى الخروج إلى ساحات القتال من وهم المصالحة مع الكيان الصهيوني وإلى الكف عن الحزن على الشهداء والنحيب عليهم! فالقصيدة قبل أن تكونَ تجسيداً لحوار سخين عن المقاومة بين الأم الشجاعة والإبن، إيحاء بشجاعة الولد أبي مازن الشهيد وأمِّها، حيث أبَتْ أن لايكون الإبن إلّا شهيدا في سبيل الوطن:

وهبَّ، مازن، الفتى الشجاع/ يحمل عبءَ حبِّه وكل همّ أرضِهِ وشعبه/ وكلَّ أشتاتِ المنَى المبعثرة/ ماضٍ أنا يا أمّاه! ماضٍ مع الرفاق/ لموعدي، راضٍ عن المصير/ أحمله كصخرة مشدودة بعنقي.../ يا ولدي/ إذهب/ وحوّطَتْهُ أمه بسورتَيْ قرآن/ إذهبْ/ وعوّذْتُه باسم الله والفرقان ... ياولدي/ يا كبدي/ من أجل هذا اليوم/ من أجله ولدتُكَ/ من أجله أرضعتُكَ (8).

فالأمهات عادة ما إن يستمعن موت أولادهنّ حتى يقمن العزاء والمأتم! إلا أنّ هذه الأم الشجاعة لاتفعل! بل تعتقد أنّ إبنها لم يُولد إلا ليكون مناضلا ثم شهيدا في سبيل الوطن! بل هي من أجل هذا الهدف النبيل ولدتْهُ وأرضعته! فسبحان الله كيف حلّ الوطن لدى الأم محلّا أكبر من الولد، حيث ينزل الولد في مرتبة تالية منه؟ إن فدوى تطمئن فلسطين في المقطع التالي بأنها هي وأمثالها وكافة الشعب الفلسطيني لايقرّ لهم قرار إلا بعد أن يتنفس الوطن في هواء الحرية الطلقة، وهم كلهم قرابينُ خلاصِ الوطن فتقول: "يا فلسطين اطمئنى، أنا والدار وأولادي قرابين خلاصك، نحن من أجلك نحيا ونموت" (9)، ولكنها مع الأسف لم تتحقّقْ لها ما حلمت بها في حياتها، فدوى هذه قلّما يعتريها البكاء والنحيب، بل هي كأنها دائمة الاستعداد لمواجهة العدو، ولا تريد أن تخنع له ببكائها أو نحيبها، فهذه الشجاعة والذكورية في قلة نحيب الشاعرة وبكائها، خير دلالة على روح المقاومة عندها، وهو من أبرز ما يميز شعرها عن غيرها من الشاعرات. فظلت هي باقية في وطنها نابلس حتى انقطاع النفس وقتما ترك جملة كاثرة من الشعراء الفلسطينيين والشاعرات الفلسطينيات أوطانهم، بينما جاهدت هي في خندق المجاهدين ضد العدو الصهيوني!

3-2- وصف ما آل إليه أمر الوطن من ظلم ودمار وهلاك في حق أبنائه:

لم تكتفِ صفار زادة خلال وصفها عن الثورة الإيرانية وتضحيات الشعب الثائر بسرد ما قام به الشعب من مناضلات، بل صورت أعمال الأعداء الخبيثة، لكي تتمكّن من أن تحفّزَ روحَ المقاومة في قلوب المجاهدين أكثر فأكثر، على شاكلة قولها في وصف جرائم الكيان البهلوي من قمع وقتل:

باز سازان دوباره می سازند/ از کشته پشته/ از کله مناره/ از خون دجله (10). ترجمه: وصانعو العسف يصنعون من جديد! من الأجساد ركاماً ومن الرؤوس مناراً ومن الدماء أنهارا.

صورة بناء ركام من الرؤوس والأجساد، وجريان نهر من الدماء، صورة في غاية الغرابة، وفيه دلالة على مدى ظلم الحكومة البهلوية الشاهنشاهيّة. أمّا لو عدنا إلى أعمال فدوى طوقان فنجدها ملئانة بمشاهد مؤلمة حقيقيّة وتمثيليّة من جرائم العدو الصهيونيّ، فتصوّر الشاعرة مثلا في قصيدة "إلى السيد المسيح في عيده" فلسطينَ صورة ملؤها الغم والحزن! فكأنها هي إنسان تنزل بجسمه أسواط الطغيان! فيصرّخ صرخة النجدة والاستمداد ويبكي بكاء الثكالى أمام الناس أجمع!

يا سيّد يا مجد الأكوان/ في عيدك تصلب هذا العام/ أفراح القدس/ ... القدس على درب الآلام/ تُجلد تحت صليب

المنحة/ تُنزف تحت يد الجلاد/ والعالم قلب منغلق دون المأساة ... (11).

قصيدة "جريمة قتل في يوم ليس كالأيام" خير نموذج تفتح أمامنا مشاهد عن قتل الأبرياء الفلسطينيين. منذ أن وجد الاحتلال وهدفه قتل البراءة واغتيال الفرح، حاصر الجمال، لأنه لا يفقه إلاّ لغة الدم والموت والبشاعة. تصوّر الشاعرة فدوى في الأبيات التالية فتاة ذاهبة إلى مدرستها تحمل كتبها، ليست إرهابية أو تحمل مسدساً، بل إنها تسير بمريولها هادئة مطمئنة ولا تعلم أنّ الوحش بانتظارها ليمزق جسدها الغضّ، إنها جريمة قتل في يوم ليس كالأيام:

بغرفتها أمها المتعبة/ تلملم أوراقها المدرسية/ حذار العدى يا بنيّه/ فعين العدو تصيب/ وما كذب القلب/ كان عدو الحياة يطاردها في المسيره/ ويُنشب في عنقها مخلبه (12).

وهذه الاشارات كثيرة شملت ظلم المحتل في هدم المنازل وتخريب المساجد وما إلى ذلك. والملاحظ بهذا الصدد أن طاهرة صفار زادة رغم أنها وصفت حال الشعب الايراني وقت الثورة الاسلامية الايرانية، وألحمت إلى جملة من ألوان التعذيب الذي نزل بحقهم، غير أنّ هذه الاشارات قليلة إذا قورنت بما ورد في ديوان فدوى طوقان من وصف أضراب العذاب كالتصفية الجسدية وتخريب المساجد والبيوت وقتل الأبرياء، وفي ذلك دلالة على أن الحكومة الظالمة الشاهية لم تبلغ مبلغ الكيان الصهيوني الغاصب جريمة وفتكا بالناس.

3-3- وصف مكانة الشهداء وأنهم هم أحياء عند ربهم يرزقون:

تدعو صفار زادة الشعب الايراني في قصائد عديدة من مختلف دواوينها إلى دك قلاع الظلم حين حُكمِ السلطة البهلوية، لأنّهم لو فعلوا لفازوا في الدنيا والآخرة، فإن تمكنوا من إسقاط الحكومة الظالمة لفازوا في الدنيا وتمتعوا بحياة أكثر رغدا وتنعّما ولو استشهدوا في ساحات القتال لفازوا بالحياة الأبدية التي لاتنقطع ولا تفنى، فياطوبي للشهداء ولمن يسلك مسلكهم:

امروز آن پرندگان شهيد/ هم زنده اند/ هم شاهد/ ومهمان خداوندند/ به رزق و روزي پاك/ در غرفه هاي غربت وخرسندي(13). يعني: تلك الطيور الشهيدة/ حية اليوم/ وشاهدة عند الله/ وهي ضيوف ربها الجليل/ ومدعوّة إلى رزقه الطيب/ في غرف الغربة والرضى!

ثم تحلم الشاعرة الفارسية بأن يلحقها ربُّها بركب الشهداء، فتستشهد في سبيل الله، لتنال وسام الشرف والعزة، فتخاطب الشهداء بأنْ يأخُذُوا بِيَدِيْهَا لتذهب معهم:

آه أي شهيد/ دست مرا بگير/ با دستهايي كه/ كز چاره هاي زمين كوتاه است/ دست مرا بگير/ من شاعر شما هستم/ با جان زخم ديده/ من آمده ام كه با شما باشم (14). ترجمة: أيها الشهيد، خذ بيدي، بأياديك التي رفعت عن كل الحيل، خذ بيدي، لأن نشيدي لايتوجّه إلا إليك وإلى أمثالك! بنفسي الجريح، أتيت أن أرافقكم!

رغم أن فدوى تناولت مكانة الشهداء وكرامتهم عند الله جل جلاله وعند الناس، ولكنها لم تأمل في يوم من الأيام أن تسقط شهيدة في ساحات النضال، كأنها رغم كلَّ ما لاقَتْها من مرارة في حياتها، ولكنها عالقة بالحياة بعض الشيء. صوّرت فدوى طوقان في مواضع عدّة من ديوانه الشهادةَ ومكانتَها الرفيعة عند الله تبارك وتعالى وعند الناس، وأنها هي السعادة الحقيقة وطريقة الفلاح. تحدّثنا فدوى في قصيدة "شهداء الانتفاضة" عن شهداء قاوموا أمام المحتلين وبذلوا النفس والحياة في سبيل الحرية والشعب. والشهداء في القصيدة رموز للعطاء والخير للفلسطينيين والعرب:

رسموا الطريق إلى الحياة/ رصفوه بالمرجان، بالمهج الفَتِيَّة بالعتيق/ رفعوا القلوب على الأكفّ حجارةً، جمراً، حريقا/ رجموا بها وحش الطريق/ هذا أوان الشدّ فاشتدي/ ودوي صوتهم في مسمع الدنيا وأوغل في مدى الدنيا صداه/ هذا أوان الشدّ/ واشتدّت وماتوا واقفين/ متألّقين كما النجوم/ متوهجين على الطريق، مقبّلين فم الحياة (15).

تشير فدوى في الأبيات إلى حياة الشهداء بأنها هي الحياة الحقيقية، فهم ما إن استشهدوا حتى قبّلوا فم الحياة، فتخلّدوا. وفي الأبيات التالية تصرح الشاعرة بأن الموت مهما صعد ومهما حاول أن يلتحق بركب الشهداء ليُميتهم لم يبلغ إليهم، فهم

أكبر من الموت بأضعاف، لأنهم يتصاعدون ويطؤون على عيون الكون، وفي ذلك دلالة على كرامة موطئهم، فناهيك عن شرفهم ومكانتهم:

أنظر إليهم في البعيد/ يعانقون الموت من أجل البقاء/ يتصاعدون إلى الأعالي/ في عيون الكون هم يتصاعدون/ هم يصعدون ويصعدون/ لن يمسك الموت الخؤون قلوبَهم (16).

3-4- نشدان الحرية:

من المفاهيم الأخرى التي تجلت في ديوان طاهرة صفار زادة الحرية ونشدانها، فهي لاتقول الشعر إلا لها وتلتمس من جراء شعرها أن تزول السلاسل والغلل، فتستنشق الهواء الطلق برفقة شعبه الأبيّ. في شعر« سبزه – العشب النامي» تمكّنت الشاعرة من إبراز صورة عشبٍ نمى وكَبُر في قلب الأحجار والصخور فخرج منها برأسه ليتنفّس الحريةَ المنشودة! ولكنّ الأسف كلّ الأسَفِ أن الخطى المتمرّدة الطاغية دحَسَتْهُ، إلا أنّ الحرية بقيت ولا تزال منشودة محمودة!

آن سبزه/ كز ضخامت سيمان گذشت/ وقشر سنگی را/ در كوچه شبانه بابُل/ تا منتهای پرده بودن/ شكافت/ آن سبزه زندگانی بود/ و پای باطل تو/ آن پای بويناك/ با چكمه‌های كور/ آن سبزه را شكست/ آن سبزه/ رويش آزادی/ آن سبزه/ آزادي بود (17). يعني: تلك العشبة/ التي تجاوَزَت سمكة الصخور/ وشقّق الأحجارَ في أزقة بابل الليلية إلى نهايات الحياة/ كانت هي الحياة! بيد أنّ أقدامك الباطلة المتعفّنة التي ظهرت بنعال عشوائية، كسّرت تلك العشبة! فتلك العشبة كانت هي الحرية! والحرية نفسها!

رمزت الشاعرة بالعشبة عن هؤلاء الأحرار الذين يبذلون كل ما يمتلكونه في سبيل الحرية والحياة السعيدة الرشيدة، فمثَلُهم مثل تلك العشبة التي لاتزال تسعى وتحاول لكي تخرج عن أسر الصخور إلى عالم رحب مترام! فتلك الصخور والجمادات التي أصبحت سدا بل سدودا أمام حياة الشاعرة ونموها، يُرمز بها عن الظَلَمة الطاغين الذين يمنعون الأحرار من أي تقدَّم، إلا أنهم ينمُون ويكبرون بعد أن دحسوا تحت أقدام الجبابرة ثم يخرجون أرْؤُسَهُم بكلِ فخرٍ وإعزازٍ بعد أن كانت متقبّعةً في زوايا الهموم والأحزان، فيكسرون تلك الأقدام!

أما الحرية في ديوان الشاعرة الفلسطينية العملاقة فهي متبلورة أكثر وأكبر من أي مفهوم آخر! فدوى تنشد الحرية وتحنّ إليها في كلّ الأحوال وعنها تدافع ولها تناضل عن سويداء القلب، وفدوى هذه ليست وحيدة في تلك المناشدة الشجاعة، بل ترافقها جميع عناصر الطبيعة ومكوناتها، لكي يستعيدوا معا تلك الحرية المنهوبة:

حريتي، حريتي، حريتي/ صوت أردّده بملءِ فمِ الغضب/ تحت الرصاص وفي اللهب/ وأظَلُّ رغم القيد أعدُو خلفَها/ وأظل رغم الليل أقفُو خطوَها/ وأظل محمولا على مدِّ الغضب/ وأنا أناضل داعياً حريتي، حريتي، حريتي/ ويردّد النهر المقدس والجسور/ حريتي/ والضفتان تردّدان حريتي/ ومعابر الريح الغضوب/ والرعد والإعصار والأمطار في وطني/ ردّدها معي، حريتي، حريتي، حريتي (18).

تؤمن فدوى أن تحقيق الحرية لايتيسر إلا في ظلال السيوف والتضحية تحت الرصاص ولهيب النيران، رغم أن الشاعرة فدوى مقيدة بأغلال ولكنها تعدو خلف الحرية ولاتخطو خطوة إلا ورائها أمل اللحاق بها. ثم إنها ليست وحيدة في ذلك الطلب والأمل، بل الطبيعة بكافة عناصرها هي الثانية تريد اللحاق بها.

3-5- التطلع إلى مستقبل زاهر ونشوء حياة رغيدة:

رغم أنّ الظروف التي عاشتها إيران وقت الثورة كانت رهيبة خطيرة، ولم تكن هناك حريات لا في الرأي ولا في المعتقد ولا في اختيار الولاة والحكام، ولكنّ الشاعرة طاهرة صفار زادة مع كل ذلك تتطلّع إلى مستبقل زاهر مشرق، إلى مستقبل تنفتح فيه كافة المؤهلات والزهور لكي تتبنى الحياة من جديد! فيحين زمن الحرية، وهذه الحرية والفك من القيود والسلاسل والأسر لاتتحقق في الواقع إلا في ظلال الثورة والصحوة. تقول الشاعرة مخاطبة سيدها الامام الحسين، بعد أن سلّمت عليه:

در اين حكومت شب/ در اين حكومت نظامي شب/ تو روز را از انهدام نگه مي داري/ سلام بر تو/.../ كه بيداري/ وآن كه بيدارست/ برمي خيزد/ به عاشورا مي پيوندد/ رها مي شود

(19). ترجمة: في حكومة الليل/ في حكومة الليل العسكرية/ فأنت الذي تحتفظ النهار من الهدم والدمار/ سلام عليك... / لأنك صاحٍ/ ومَن كان صاحيا سوف يقوم! وينضم إلى ركب العاشوراء، فيتحرَّر من الأسر... .

نظرت الشاعرة إلى الآفاق ورأت أنّ الحسين هو الذي صان النهار من الهلاك، فالنهار باقٍ والليل زائل، ثم هي تدعو الناس أن ينضموا إلى سلك شهداء عاشوراء، ليصيحوا من سبات الغفلة، ذلك أنّ مَن صاح عن الغفلة تحرَّرَ من الأسر! كما هي في مقطع "وسرزمين/ سرود رهايي است/ تو سرزمين رهايي هستي - الموطن نشيد النجاة والحرية! فيا موطن أنت تنتمي إلى الحرية!"(20) تأمل أن تنجو الوطن من أسر الاحتلال وهذا أمل متجذّر في قلوب شعراء المقاومة أجمع. وأما فدوى طوقان فتقول في أبيات لها مجسِّدة أملها الوطيد بمستقبل مشرق مخاطبة العام الجديد:

أَعطِنا حُبّاً فَنَبني العالمَ المنهارَ فينا/ مِن جديد/ ونُعيدُ/ فرحة الخِصبِ لِدنيانا الجديبة/ أَعطنا أَجنحة نَفتَح بها أُفقَ الصُعُودِ/ نَنطَلق مِن كهفنا المحصورِ مِن عزلة/ جدرانِ الحديد/ أعطنا نوراً يشُقُّ الظلماتِ المدلهمَّة/ وعلى دَفقِ سَناهُ/ ندفَعُ الخَطوَ الى ذِروةِ قمَّة/ نَجتَني مِنها انتصاراتِ الحياةِ (21).

تخاطب الشاعرة السنة الجديدة فتحلم بأن تكون سنة ملؤها السعادة والفرح، وأن تكون سنة التحرُّر من تقبُّع الشعب من كهف الأحزان والمصائب والعزلة، فتفوح في القصيدة رائحة الأمل إلى المستقبل واقتطاف أثمار النجاح والنصرة. وفي الأبيات التالية تحلم بطلوع فجر قريب:

يا وطني ما لك يخني على روحك معنى الموت معنى العدم؟/ جرحك ما اعمق اغواره، كم يتنزّى تحت ناب الألم/ ستنجلي الغمره يا موطني، ويمسح الفجر غواشي الظلم(22).

3-6- ذم التنويريين المطاطيين الذين لايهمهم سوى المال والثروة وتكنيز النقود:

من المشتركات الأخرى التي وردت في شعر الشاعرتين المقاوم، ذمّ الطبقة المسماة بالتنويريين المطاطيين، هؤلاء الطبقة التي يحقّ لنا أن نسمّيهم بأصحاب الهوى والمال، حيث يديرون ما دارت مصالحهم! في قسم من شعر «سفر عاشقانه – رحلة العشاق»، وجّهت طاهرة صفار زادة أصابع الاتّهام إلى الطبقة المثقّفة التي تحاول أن تقيم نداوات اللهو والبطالة ولا تسعى لحلحلة مشاكل الناس والمجتمع الغارق في وحل الظلم إلا عبرها! فكأنّ تلك الطبقة الناعمة ودّعت الشعبَ والناسَ أجمعين، بل هي ترافق حكومات الضلال والطغيان، إما بمشايعتها لمشاريعها الكفراوية وإما بسكوتها وصمتها أمام ظلمها! فتستهزئ الشاعرة بهم وبمنهجيتهم وتوجّه لهم أمرَّ الطعنات!

ماندانه شاهد بود كه/ مرد بزم و بطالت بوديد/ مرد جشن و جشنواره بوديد/ و زخمهاي جان من از/ جشن‌هاي آتيلاست/ به نامه گفتم/ اي والا/ برخيز/ پرواز كن/ پرهيزت از آنان باد/ نيمه روشنفكران/ كه نيم ديگرشان جبن‌است/ نياز است/ آنان ترا به عمد غلط مي‌خوانند/ قائم به ذات بايد بود/ قائم به ذات او بايد بود (23). كانت ماندانه شاهدة/ أنكم كنتم رجال العيش والبطالة/ ورجال إقامة المهرجانات/ بيد أنّ جروحي من جنس جروح آتيلا/ فقلت للرسالة: أيتها العليّة! قومي! وطيري واجتنبي عنهم! وعن أشباه المثقفين! الذين شِقُّهم تثقيفٌ وشقّهم الآخر جبن! فهمو حتى يقرؤون اسمك عن قصدٍ خاطئا، فاستقلّي عنهم! وثقي بذات الله المقدسة!

يملأ ديوان فدوى طوقان بذمّ تلك الطبقة المترفة وبذمهم، حيث وجّهت فيها الشاعرة أصابع الاتهام في معاناة شعبها وما لاقها من مآسٍ وأحزان، إلى ساساتهم والطبقة المسمّاة بالتنويريين الذين لايدعون إلّا إلى الندوات والحوارات و...:

مازِلنا فِي غُرَفِ التَخدِيرِ/ عَلَى سُرَرِ التخدير نَنَامُ/ وَالعَامُ يمرُّ وَراءَ العَامِ/ وَراءَ العَامِ وَراءَ العَامِ/ وَالأَرض تُميد بِنا والسَقفُ يهيلُ رُكاماً فَوقَ رُكامٍ/ والكذبُ يغَطينا مِن قِمة هامَتِنا/ حَتَى الأقدامِ/ يا إخوَتَنا قُولُوا حَتام؟/ أوّاهُ وآهٍ يا فِيتنامَ/ آهٍ لو مِليون محارب/ مِن أَبطالِك/ قَذَفتْهُم رِيْح شَرقية/ فَوقَ الصَحراءِ العَربية/ لفرشت نمارق/ ووهبتمو مليون ولود قحطانية/ عَفواً يا أهلَ البَيتِ/ جَارِحة هَذي الأمنية/ لَلكننا لم يبقَ لَدينَا/ مِنكم الاَّ قَعقَة الصوت... (24).

فقد دعت فدوى طوقان ما يسمى بالتعصب القومي، واخذت تتمسك برموز من المقاومة في العالم بأسره، لكي تستنهض همة المجتمع العربي عامة والفلسطيني على وجه الخصوص، فالشاعرة في قبيل تلك الأبيات خرقت آفاق القومية إلى آفاق أكثر اتساعا وشمولا، حيث تحول شعرها إلى شعر عالمي! فهي تخاطب الفيتناميين وتجعل منهم قدوة حية لكي تتأسى بهم العرب وخاصة الساسة في نضالهم، لعل غيرتهم تحركت وتخرجت من جمودها! فقد سمت الشاعرة القصيدة المذكورة بـ "الأمنية الجارحة" وفي هذا التعبير خير دلالة على ما في قلب الشاعرة من هموم وجروح ترسّخت في قلبها ووجدانها!

3-7- حب الوطن والنضال في سبيله والحنين إليه:

حب الوطن من أهم عناصر الأدب المقاوم في كافة اللغات وعند مختلف الأقوام، فالذود عن الوطن وعن الحرية والغيرة والهوية الوطنية ليس مما يسكت عنه الشاعر المقاوم ويغمض عينيه أمامها وخاصة إذا كان هذا الوطن مستباح الدماء ومهتك الأعراض! جنّدت طاهرة صفار زادة كبقية شعراء المقاومة كافة مقدرتها الشعرية وقواها دفاعاً عن وطنها ومسقط رأسها، تشير في الأبيات التالية إلى أن حبّ الوطن يجب أن يبلغ درجة يضحّي المرء أنفس وأثمن ما يمتلكه في سبيل منجاته:

در كوچه در خيابان شهر/ هر جا كه مي روي/ در كوچه/ در خيابان/ صفوف خياباني است/ صفوف متحد جنگلي/ كه عاشقانه مي جنگد/ ومي خواهند/ باطل برود/ بيگانه برود/ ومي خواهند/ كه حق هميشه بماند/ وطن هميشه بماند (25).

ترجمة: في الزقاق وفي شوارع المدينة/ وإلى أي حيّزٍ ذهبتَ/ إلى الزقاق أو الشارع/ لوجدتَ صفوفا للشوارع وللغابات متّحدة/ تحارب بكل حب وغرام/ تريد أن يرحل الباطل/ وأن يرحل الأجنبي/ وأن لايبقى إلا الحقُ إلا الوطن الأغر!

فالوطن كله جميل، أرضه وسمائه، حجره وشجره، طيره وسيره! طاهرة هذه تعشق الوطن بكافة مظاهره، فحنّت إلى كل ما فيه وإلى منازلها الطينية في واحات الفلات! تقول في إحدى قصائدها من مجموعة "طنين در دلتا – صدى في الهضاب":

مادر ويليام دلتنگ نقاشي هاي شهرش پورتوريكو بود/ من به بوي كاهگل خانه اي مي روم كه سر راه كوير ايستاده است (26).

ترجمه: فقد حنت أم ويليامز لرسوم مدينتها بورتوريكو، وأما أنا فأحنّ إلى رائحة منزل طيني واقف في طريق الفلات!

مرت على شعر فدوي مرحلتين خطيرتين، مرحلة رومانسية متمثلة في نجوى قلب جريح متفاعل مع الطبيعة وهي مرحلة ظهرت في شعر فدوى البدائي، حيث لم تدخل الشاعرة حينها عالم المقاومة والنضال، تلوذ الشاعرة في هذه المرحلة بالفرار عن الواقع المرير وتبحث عن مجهول تنجيه وتأتي بها إلى عالم مجنح متسع (27)، والمرحلة الثانية هي الواقعية التي جاءت إثر الاحتلال الفلسطيني وتلك النكسات والنكبات التي لحقت بالمجتمع العربي جراء التعدي الصهيوني الظالم، وخاصة بعد حرب جون 1967م. فأصبحت الشاعرة في هذه المرحلة تقف في الكيان الغاصب الصهيوني شعرا وقلما، بعد أن كانت تنادي إلى عالم مجهول كما ألمحنا (28). فأصبحت الشاعرة تخصص ديوانها الشعرية بعد هذه المرحلة لفلسطين، لمأوى آبائه وأجداده، ولوطن شعب مضطهد فقدت مأواه ولمقاومة أبطاله وتضحياتهم التي تأخذ ألباب القلوب والأبصار. تصور الشاعرة في الأبيات التالية من قصيدة "كفاني أظل بحضنها" حبَّها وانتمائها إلى الأرض الفلسطينية المقدسة، قائلة:

كفاني أموت عليها وأدفن فيها/ وتحت ثراها أذوب وأفنى/ وأبعث عشبا على أرضها/ وأبعث زهرة/ تعيث بها كف طفلٍ نمتْهُ بلادي/ كفاني أظل بحضن بلادي/ ترابًا وعشبًا وزهرة (29).

وفي قصيدة "الفدائي والأرض" التي سبق أن أشرنا إليها، تحدّثنا الشاعرة في حوار أبي مازن وأمها عن مكانة الوطن عند الأم والولد، وأنه سلك طريق الشهادة من أجل الوطن الذي أعزُّ عنده من الأمّ التي تحيطها القدسيَّةٍ والطهارة، فتقول:

ماضٍ أنا أماه/ ماضٍ مع الرفاق/ لموعدي/ راضٍ عن المصير/ أحمله كصخرةٍ مشدودةٍ بعنقي/ فمن هنا منطلقي/ وكلّ ما لديّ، كل كلّ النبض/ والحب والإيثار والعبادة/ أبذله لأجلها، للأرض/ مهراً فما أعزّ منك يا/ أماه إلا الأرض (30).

4- المقاومة وعناصرها في شعر فدوى طوقان وطاهرة صفار زادة – الفوارق:

4-1- كثرة توظيف الرموز في شعر فدوى طوقان المقاوم قياساً بشعر طاهرة صفار زادة:

رغم أن التمسّك بالرموز والكنايات في الشعر فراراً من المتَابَعَة الحكوميَّةِ كان من الظواهر الشائعة في شعر المقاومة قبل اندلا ع الثورة الايرانيّة، لم تلجأ الشاعرة طاهرة صفار زادة إلى لغة التكنية والترميز إلا قليلا. من ذلك القليل في توظيف الرمز قصيدة «ساله‌اي خراب – السنوات المعتّمة» التي تقول فيها:

ايوان خانه‌ام/ به وسعت قبري است/ از آفتاب وخاك/ نشسته‌ام به وسعت قبر/ ومنتظرم/ كه دست رهگذري/ ادامه دستانم باشد/ وقفل خانه را بگشايد/ صداي خسته كفشي مي‌آيد/ صداي تيزي زنگ/ از قعر پلكان/ مهماني آمده ست بگويد/ امروز هم هوا دوباره گرفته ست/امروز هم هوا دوباره خراب است (31). يعني: رواق بيتي/ يشبه اتساعه اتساع قبر من الشمس والتراب! فأنا فيه جالسة باتساع القبر! وأترقب أن تكون يديْ مارة استمرارا لأياديَّ! لتفتح قفل البيت. أسمع صوت حذاء كليل وجرس دقيق! من عمق السلالم! لعله ضيف أتاني ليقول: الطقس رديء اليوم والسماء عابسة قاطبة! يا إلهي الطقس رديء أيضا؟

"فردائة حالة الطقس" مثلا كناية عن شدة الفساد المتفشّي في البلد وردائة الأحوال والظروف، و"الأيدي والأيادي" رمّزت بها الشاعرة عن القوّة والمكنة، فهي تترقّب بل تستشرف أن يخرج مارّة لتأخذ بيدها لتتحوّل إلى أياد! والباب المقفّل كناية عن السجن الذاتيّ، الشاعرة سجينة في منزلها، وكأنها لاتستطيع أن تخرج وترى النوى إلا من خلال شرفة بيتها، فتترقّب لكي يصل مارّة ويسمع صوت أحذيته صاعدا إلى بيتها لانفتاح القفل وسماع صوت الجرس! فيأتي هذا الضيف ويفعل، إلا أنه لم يأت بأخبار سارة، بل يقول: مازال الطقس رديء، كما كان! كادت دواوينُ صفار زادة أن تخلو من أيّ رمز! لغة الشاعرة بسيطة قابلة للفهم بكل سهولة، ولاتسمع فيها التعقيد ولا الترميز والتكنيه إلا قليلا، خلافا لديوان الشاعرة العربية فدوى طوقان، حيث ما إن تتصفّح في مجموعتها الشعرية إلا تجد رمزا بل رموزا! هذه الميزة هي من خير ما يميّز شعر فدوى طوقان عن شعر طاهرة صفار زادة. قصيدة "لن أبكى" خير نموذج لتوظيف الرمز، مما جاء في هذه القصيدة:

أحبائي حصان الشعب جاوزَ/ كبوةَ الأمسِ/ وهبَّ الشهمُ منتفضاً وراءَ النهر/ أصيحوا، ها حصان الشعب/ يصهلُ واثق النهمة/ ويفلت من حصار النحس والعتمة (32).

وفي الأبيات التالية ترمز الشاعرة بـ "الطوفان الأسود" عن الكيان الصهيوني ومن لفّ لفّهم من الظلمة:

يوم الإعصار الشيطانيّ طغى وامتدّ/ يوم الطوفان الأسود/ لفظتْه سواحلُ همجيةٌ/ للأرض الطيّبَةِ الخضراءِ(33).

ففي جملة من قصائد الشاعرة تجد أنها توظف لغة الرمز تعبيرا عن أحاسيسها، من شواهد أخرى من توظيف الرمز عند الشاعرة قصيدة "تموز والشيء الآخر" (34)، حيث تحفل بالرموز بالرموز، بأبعادها ودلالاتها، فليراجعها القارئ الكريم لو شاء.

4-2- استيلاء الحزن والهمّ على شعر فدوى طوقان بخلاف الشاعرة الفارسية:

من أهم سمات شعر فدوى طوقان حضور الحزن الدائم في شعرها، سواء في شعرها الرومانسي أو في شعرها المقاوم الذي جاء بعد نكسة 1967. لنأخذ مثالا من قصيدة "الحياة" على ذلك، تصف الشاعرة حياتها على النحو التالي: حياتي دُموعٌ وقلب وَلُوعٌ وشوقٌ وديوانُ شعرٍ وعُودُ(35). فالدموع في الحقيقة لاتنكسب قبل العيون إلا من قلب جريح! قلما تجد شعرا من أشعار طوقان المقاومة لم يكن الحزن متعششا فيه، أنظر مثلا إلى قولها في قصيدة "لن أبكي"، حيث أهدتْهَا إلى شعراء المقاومة في الأرض المحتلة على سبيل المثال ولا الحصر:

على أبواب يافا يا أحبائي/ وفي فوضى حطام الدور/ بين الردم والشوك/ وقفتُ وقلتُ للعيْنَيْنِ: يا عينين/ قفا نبكِ...(36).

معين ألم الشاعرة قد يكون فلسطين وما لاقتها شعبها من مرارات واحتقار كما لاحظنا في الأبيات المذكورة من قصيدة لن أبكي، وقد يأتي ذلك الألم من جراء مختلف المرارات التي تجرعها

خلال حياتها، وقد يكون أُسُّ تلك الأحزان فكرة الشاعرة لمآل الإنسان وما يلقيه من المنيّة! فكّرت الشاعرة بنهاية المطاف البشري وبالموت الذي يحتضن كل انسان ويستأثر بجسده، فتقول:

ذاك جسمي تأكُلُ الأيامُ منه والليالي/ وغدا تلقى إلى القبر بقاياه الغوالي/ وي كأني ألمح الدودَ وقد غشَّى رفاقي/ ساعياً فوق حطام كان يوما بعض ذاتي/ عائثاً في الهيكل الناخر يا تعس مآلي! (37).

فالقارئ لاتجد هذا الضرب من الألم والحزن العميقين في شعر صفار زادة، رغم ما فيه من بيان المشقَّات التي تعاني منها المجاهدون والمناضلون، بل شعر الشاعرة الايرانية منفتح الأفق إلى سماء الأمل وإلى الفرح والسرور.

4-3- إنذار الطاغين بأن الله هو القوة الأبدية التي يستأصل شأفتهم في أقل من ثوان:

من المفاهيم الأخرى التي تناولتها صفار زادة خلال أشعارها الكفاح في وجه الحكومات المتردية الغاصبة المستعلية وهذا مفهوم كثرما عرضها الشعراء المنتمين إلى المقاومة، فجدال الحق والباطل وظهور الحق عليه له بروز في شعرهم المقاوم. تعتقد صفار زادة أنّ السلطة الحقيقة التي تعود إليها كافة القوى هو الله وحده، فإذا شاء جلّ جلاله أن يقلِّم أظافر الطاغين والمعتدين، لَفَعَلَ ذلك في أقلَّ من ثوانٍ وفي أقل من كن فيكون:

در منتهاي صبر وستيز/ بايد دانست/ كه در مقام قادر يكتا/ قدرت وجود ندارد/ يگانه ابرقدرت اوست/ سواگر جنگ افروز/ قداره بندهاي غاصب وطن ومال/ مستكبرند نه قدرتمند/ وبايد دانست/ مطيع حاكميت غيبند/ ودستبندهاي الهي/ در وعده هاي مقرر نزديك مى شود/ به دستهاي مجرمان شيطان/ به دستهاي دشمني با قرآن...(38). ترجمه: في منتهى الصبر والنضال/ ينبغي أن نعلم!/ أنه لاحول ولا قوة لأحد أمام قوة الله/ فهو السلطة الوحيدة العليا/ فمندلعو الحروب وغصّاب الوطن والمال/متكبرون وليسوا مقتدرين! وينبغي أن نعلم/ أنهم راضخون لحاكمية الغيب!/ فقيود الله/ تقترب إليهم في أيام مقرّرة/ وستحلق أيادي الشياطين/ أياد تعادي القرآن ... .

"إن الله فعّال لما يريد وإنه لايعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء وإنه تبارك وتعالى جعل لكل شيء قدرا وأجلا" فكرة استحوذت على الشاعرة طاهرة صفار زادة، فترى أن الحكومات الطاغية إن دامت في ظلمها واستمرت في طغيانها، لعل آجالها لم تنته بعد! ذلك أن أجلها إذا اقتربت لانقلبت أحوالها رأسا على عقب، واستحالت قدرتها إلى الضعف والانتكاس. مهما يكن من أمر، إن قدرة الله ورؤيته المستدامة وإشرافه جل وعلا على كل الأمور، حاضرة جلية في كافة مواضع ديوان طاهرة صفار زادة، غير أن هذه الميزة لم توجد في ديوان فدوى طوقان بحَسَب بحث الباحثة، حيث تصفحتْ مجموعتها الشعرية الكاملة، فلم تحصل على نماذج أو شواهد شعرية مخصصة لتدخل القوة الالهيّة في اندكاك الظلم على وجه المعمورة، فكأنّ فدوى طوقان تؤمنّ بأنّ الطبيعة لها قوانينها ومبادئها، فعلى الانسان أن يتشبّث بتلك القوانين لينال وسام النجاح. بيد أنّ الميزة الأساسية بين الشاعرتين بهذا الصدد أنّ فدوى لم تسلك في دواوينها الشعرية مسلك المتصوفة والعارفين، بل منهج الواقعيين الذين يؤمنون بتحقيق النتيجة عبر الأسباب والوسائط، في حين أنّ الشاعرة الفارسيّة تؤمن بالوسائط ولكنها تجعلها في المرتبة الثانية، لأنّ إرادة الله تبارك وتعالى مستولية على كافة الوسائط، فإذا لم تشأ أن يقع فعلٌ فلا يقع وإن تجمّعت كافة وسائط العالم! تبدو أن الفكرة العرفانية أقل حضورا في ديوان الشاعرة العربية إذا قيست بديوان الشاعرة الفارسية.

4-4- وصف حال المشرّدين في ديوان فدوى طوقان وانعدامه في شعر طاهرة صفار زادة:

بعد النكبة الفلسطينة بعام 1948 التي كانت من أقبح ما نال العرب خلال تاريخها المديد، أخذت فدوى طوقان تجيش غضبا وتقول شعرا فيما نال قومه من ذلٍّ وهوان، فبدأت تصف حالة المشرّدين والمشرّدات في المخيّمات، وما ينال ذلك الشعب من جوع وظمأ وبلاء ومحنة. فهي على سبيل المثال تصف في قصيدتين لها تحت عنوان "الرقية" و"مع لاجئة في العيد" حالة البنات المشردات والأيتام الأبرياء في المخيّمات الفلسطينية بعد

أن تعرّضت لزمن الرفاه التي كان يتمتّع بها هؤلاء. إليك نموذجٌ من أبيات قصيدة "الرقية" حيث فيها تصوير لحياة التشريد مع ما فيها من محاربة المشكلات والمصائب والجوع والفتك:

في وحشة الليلِ، ليلِ المواجع، ليلِ المواجد، ليلِ الهموم/ وللريح ولولةٌ في الشعابِ وللرعد جلجلة في الغيوم/ هنالك تحت الضباب المسفّ والأرض غرقى بدفق المطر/ هناك ضَمَّ (رقية) كهف رغيب عميق كجرح القدر/ تدور به لفحات الصقيع فيوشك يصطك حتى الصخر/ وتجمد حتى عروق الحياة ويطفأ فيها الدم المستعر/ (رقية) يا قصة من مآسي الحمى، سطَّرَتْها أكفُ الغِيَر/ ويا صورة من رسوم التشرُّد والذل والصدعات الأخر/ طغى القرّ، فانطرحت هيكلا شقي الظلال شقي الصور (39).

الصورة المذكورة صورة عن بنت طريح في الشوارع قرّا وبردا بقى جثمانها دون روح ولا حياة! رغم أنّ الشعب الإيراني لاقت أضراباً من الظلم بسبب الحكومة الشاهنشاهية الظالمة، ولكنها لم تكن مشرّدة من هنا وهناك، بل لكل منها بيوتها ومأواها، على خلاف الشعب الفلسطيني المظلوم ومن الطبيعي تماما أن تصف الشاعرة الفلسطينية تلك الأحوال المريرة.

4-5- دائرة الشعر المقاوم لدى طاهرة صفار زادة أكثر اتساعا من شعر فدوى طوقان:

شعر المقاومة لدى طاهرة صفار زادة فضلا عن الموضوعات الثورويّة الجهاديّة تشمل ما قيل في الأئمه الكرام وما لاقوه من أذى وما بذلوه من تضحيات وكفاح. تحوّل استشهاد الإمام الحسين إلى حرقة في قلوب العشاق والمسلمين والتشيّع على وجه الخصوص إلى دهر الداهرين، فشعراء المقاومة تناولوا مختلف وجوه المقاومة عند الأئمة والإمام الحسين وبيّنوا مكانتهم العليّة ومقاومتهم أمام الأعداء والمعتدين إلى يومنا هذا، كما صوّروا أعدائهم وما هم عليه من ضلال وفساد وتعدٍ(40). تقول طاهرة صفار زادة في قصيدة لها تحت عنوان "سفر بيداران – رحلة الصحاة" عن الحسين عليه السلام:

در سرزمين آسمان جبهه/ كسي به خويشتن نمي انديشد/ كسي به مرگ و مال ... نمي انديشد... زير فشار ظلم ابر باطل ها/ مدام مي خوانند/ ما در محاربه هستيم/ با هر كس كه با حسين در جنگ است/ در صلحيم با هركه با حسين به صلح است (41). يعني: في موطن الجبهة/ لايَعُدْ يفكّر أحد في نفسه/ ولا في موته ولا في ماله، لايفكّر، لايفكّر/ بل هؤلاء تَحْتَ ظلم أكابِرِ الأباطيلِ/ يصرخون دوماً/ نحن حَرْبٌ مع مَن حَارَبَ الحسين وسِلْمٌ مَع مَن سالمه!

من أخرى خصائص شعر صفار زادة اتصافه بمفهوم الانتظار وترداد ذلك المفهوم في شعرها، مما ينعدم في شعر فدوى طوقان أو كاد. تقول صفارزادة في أبيات لها مصوّرة فرج الإمام الغائب الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت ظلما وجورا:

همیشه منتظرت هستم/ بي آنكه در ركود نشستن باشم/ همیشه منتظرت هستم/ چونان كه من/ همیشه در راهم/ همیشه در حركت هستم/ همیشه در مقابله/ تو مثل ماه/ ستاره/ خورشید/ همیشه هستي/ ومي درخشي از بدر/ ومي رسي از كعبه... (42). لاأزال أنتظرك/ دون أن أقف في ركود الجلوس! أنتظرك دوما/ كأنني دائما أسير نحوك! فأسير وأسير! وأنت أمامي! كالقمر المنير والنجم الزاهر والشمس الباهرة! كأنك أبدي! وتنير كالبدر وتصل من الكعبة ... .

أما شعرية فدوى طوقان فضلا عن شعرها الرومانسي فهي مخصصة إلى القضية الفلسطينية واستعادة أرض مغضوبة وملك منهوب فحسب، ومن جراء الوصول إلى هذا الهدف وظّفت الشاعرة الفلسطينية كل طاقاتها الشعرية لتكون صوتا يناضل في سبيل الحق ضد العدو الغاشم، بيد أنّ دائرةَ هذا الشعر منفتحة في ديوان الشاعرة الفارسيّة لتجمع تحتها كافة ألوان الأدب الملتزم والمقاوم ابتداءً بوصف شجاعات الأئمة وكراماتهم ومرورا بمفهوم الانتظار وهو مفهوم شيعي صرف وانتهاء إلى الثورة الايرانية والدفاع المقدس، على نحو ما شاهدنا في الشواهد المارة ذكرها.

- النتيجة:

إن الأدب المقاوم الذي ظهر في الساحة الايرانية والفلسطينة يختلف زمانه في كل منهما، حيث يعود الأول إلى أحداث الثورة الإيرانية والحرب المفروضة بكل أبعادها، والثاني إلى احتلال الأراضي الفلسطينية وإلى النكبة التي منيت بها الدول العربية

بعام 1948 بعد إعلان الحكومة الصهيونية في الأراضي الفلسطينية، فالثاني أكثر تجذرا وقدما، ولهذا السبب بالذات إن الشاعرة فدوى طوقان قد خصصت القسمَ الأعظم من أشعارها بعد أن تحوّلت من الرومانسية إلى الواقعية لاستعادة تلك الأراضي، ولم تبلسم فؤادها الجريح في حياتها بفوز شعبها، بل ظل ذلك الشعب يعاني الظلم والشقاء ولايزال تعاني، غير أنّ طاهرة صفار زادة رغم كثرة معاناتها في عهد الثورة قيّضَ الله لها أن تنفتِح عيونُها على انتصار الثورة الايرانية وعلى استئصال شأفة الظلمة الفَسَقَة. فمهما يكن من أمر يبدو أن تزامن الشاعرتين ومعاصرتهما القضايا الهامة والتطورات الخطيرة خلال عصرهما وتعرفهما على اللغة الانكليزية والأدب الأروبي وإلتزامهما السياسي بالقضايا الوطنية والسياسية والاجتماعية وعدم انكفائهما على الذات وتأثرهما بالمضامين القرآنية والدينية رغم ما بينهما من تفاوت في مدى ذلك التأثّر، أدّت إلى أن تكون بين الشاعرتين اشتراكات جمة، رغم ما كان بينهما من فوارق التي كانت هي الأهم في دراستنا الحالية. من المضامين المشتركة التي وردت في قصائد كلتا الشاعرتين تمجيد مقام الشهادة ومكانة الشهداء وتحقير الأعداء والإشادة بتضحيات المجاهدين والمناضلين والشهداء، وحب الوطن إلخ، غير أنّ هناك فوارق بين الشاعرتين، مثل أنّ طاهرة صفارزادة لم تحكِّر شعرها في الثورة الإيرانية، بل دائرة شعرها المقاوم متسعة إلى درجة تبلغ مفهوم الانتظار ووصف الأئمة ومكانتهم وما لاقوه في عصرهم من أذى، فتعادي الشاعرة في ذلك الشعر كل مَن يعادي الأئمة، وهذا أمر قد غيب في ديوان فدوى طوقان، فهي لم تتطرق إلى قبيل ذلك الشعر نهائيا، بل شعرها المقاوم كلها مخصَّص لفلسطين المحتلّة، ولعل الدليل يكمن في أنّ فلسطين أرض منهوبة، وملك مغضوب، فالشاعرة تستقصي المجهود لكي تشارك في استعادة تلك الأرض بشعورها وكيانها مادام فيها عرق ينطف! ثم إنك تجد الشاعرة صفارزادة في شعرها المقاوم أنها تحلم بالشهادة كثيرا وتحب أن تسقط شهيدة في طريق وطنها وسعادة أبنائها، الأمر الذي لايوجد في شعر فدوى طوقان بشكل من الأشكال، والدليل قد يرجع إلى مسعاها في أن تحرِّر وطنها من قبضة الغاشمين ومن ثم حبّبَتِ الحياة على الممات لتبقى صامدة مجاهدة في سبيل الوطن. ثم إنّ فدوى وظفّت رموزا شعرية كثيرة خلال قصائدها المقاومة، في حين أنّ لغة صفار زادة تتسم بساطة قد تصل بعض الأحايين إلى السطحية.

الملحق:

1- يحتمل أن فدوى عبدالفتاح آغا طوقان ولدت بعام 1917 في مدينة طرابلس. كانت فدوى هي السابعة من أولاد أبيها العاشر، وهم: أحمد، إبراهيم، البندر، فتايا، يوسف، رحمى، فدوى، أدييه، نمر وحنان. فقد كانت ولادتها قد أتت للبيت حزنا وهما، بدل الفرح والسرور (43). تعلمت فدوى الأدب العربي على يد أخيها الأكبر إبراهيم طوقان، ثم اتجهت بعام 1962م من موطنه إلى جامعة أكسفورد في إنكلترا بمساعدة ابن عمه الذي كان يدرس هناك، فأخذت تدرس هناك في فرع اللغة الإنكليزية وآدابها، وهي بقيت عازبة إلى أن وافتها المنية(44). من أعمالها الشعرية: وحدي مع الأيام، وجدتها، أعطنا حبا، أمام الباب المغلق، الليل والفرسان، على قمة الدنيا وحيدا، تموز والنشيد الأخر، كابوس الليل والنهار، قصائد سياسية. وأعمالها النثرية "أخي ابراهيم"، "رحلة جبلية رحلة صعبة" وكتاب "الرحلة الأصعب" (45). توفيت فدوى طوقان في اليوم الجمعة 12 ديسمبر لعام 2003 في عمر يناهز 85 عاما في نابلس إثر جلطة قلبيّة.

2- طاهرة صفار زادة شاعرة وكاتبة ومنظّرة وباحثة ومترجمة وأستاذة جامعية ايرانية ولدت بيوم 27 لعام 1315 (1936م) في مدينة سيرجان من توابع محافظة كرمان. فقدت أبويها وهي لم تتجاوز 5 سنوات، فترعرعت في ذراع جدّتها التي كانت شاعرة وطبيبة في كرمان. تخرجت طاهرة صفار زادة في فرع اللغة الانكليزية وآدابها بجامعة طهران، ثم عزمت على الذهاب إلى خارج البلد، وآل بها الأمر إلى مواصلة دراستها في جامعة أيوا الأمريكية في فرع النقد الأدبي تنظيرا وتطبيقا (46) . لصفارزادة شعر بلغَتَيْ الانكليزية والفارسيّة. كتاب «چتر سرخ – المظلة الحمراء» ترجمة فارسيّة من مجموعة شعرية

لها بالانكليزية، طبعت بعام ١٩٦٨ في جامعة أيووا الأمريكية (47). عيّنت صفار زادة بعد انتصار الثورة الايرانية رئيسة لجامعة الشهيد بهشتي ورئيسة لكلية الآداب والعلوم الانسانيّة التابعة للجامعة نفسها. تعرّفت صفار زادة على اللغة العربية بجهدها الجهيد وسعيها الدؤوب، فاستطاعت أن تترجم القرآن الكريم إلى الفارسية والانكليزية، فاشتهرت بخادمة القرآن بعام 1380ش (2001م). لطاهرة صفار زادة فضلا عن مقالاتها ومقابلاتها العلمية، مجموعة قصصية منثورة واثنتا عشرة مجموعة شعرية وخمسة مجلدات شعرية من قصائدها المختارة وثلاثة عشر كتابا آخرَ فيما يخص الترجمة والنقد الأدبي والعلوم القرآنية والحديث إلخ (48).

- التوصيات:

تقترح الباحثة أن يقوم الباحثون المعتنون بكل من لغتي العربي والفارسي ببحث علمي مدقق فيما يخص مضامين الأنثوية في شعر الشاعرتين طاهرة صفار زادة وفدوى طوقان، لأنهما كانتا من أكابر الشاعرات في كل من الأدبين الفارسي والعربي من جهة، ولأن في شعرهما من مضامين دالة على الأنوثة الشيء الكثير من جهة ثانية.

الهوامش:

(آيينه وند، 1372ش (1993م): 141)
(انظر: جنتي فرد ومعصومي، 1425: 125).
(الحسين، لاتا، 12)
(انظر: روزبه: 1381ش (2002م): 307).
(صفارزادة، 1386ش (2007م): 28).
(صفارزاده، 1386ش (2007م): 79).
(طوقان، 1993: 389).
(طوقان، 1993: 392 - 390).
(المصدر نفسه: 420)
(صفارزاده، 1386ش (2007م): 12)
(طوقان، 1993: 385- 386).
(المصدر نفسه: 335-334).
(صفارزاده، 1384ش (2005م): 43).
(صفارزاده، 1387ش (2008م): 204).
(طوقان، 1993: 541- 540).
(طوقان، 1993: 542).
(صفارزاده، 1357ش (1978م):
(طوقان، 1993: 427- 428).
(صفارزادة، 1386ش (2007م): 5).
(صفارزادة: 1386ش (2007م): 14)
(طوقان، 1993: 238).
(المصدر نفسه: 108).
(المصدر نفسه: 107 – 108)
(طوقان، 1993: 485- 484).
(صفارزاده، 1365ش (1986م): 34).
(صفارزادة، 1387ش(2008م): 10)
(انظر: السوافيري، لاتا: 17)
(انظر: الجيوسي، 1997: 49)
(طوقان، 1993: 426).
(المصدر نفسه: 390).
(صفار زاده، 1357ش (1978م): 85- 86).
(طوقان، 1993: 396-397).
(طوقان، 1993: 375).
(المصدر نفسه: 541)
(طوقان، 1993: 38)
(المصدر نفسه، 1993: 394)
(طوقان، 1993: 12).
(بزرگی، 1388ش (2009م): 187).
(طوقان، 1993: 113- 114).
انظر: ترابی، 1389ش (2010م): 16)
(صفارزاده، 1387ش (2008م): 207)
(صفارزاده، 1386ش (2007م): 72).
(أنظر: شرارة، 1964: 8 و طوقان، 1988: 13).
(أنظر: الشيخ، 1994: 13)
(انظر: الجيوسي، 1997: 326/1)
(أنظر: جنكيزيان، 1387ش (2008م): 331).
(انظر: زرقاني، 1384ش (2005م): 670).
(رفيعي، 1386 ش(2007م): 15).

- المصادر والمراجع:

آيينه وند صادق، پژوهشهايي در تاريخ ادبيات، (1372ش)، تهران، اطلاعات، الطبعة الأولى.

بزرگي، زكية، تحليل و طبقه بندي موضوعي أشعار و سروده هاي طاهرة صفار زادة، (1388ش).

ترابي، ضياء الدين، آشنايي با ادبيات مقاومت جهان – تعرف على الأدب المقاوم العالمي، (1389ش)، طهران، بنياد حفظ آثار و نشر ارزشهاي دفاع مقدس، الطبعة الأولى.

جنتي فرد، محمد و معصومي، محمدحسن، تاريخ الادب العربي الحديث، (1425ق)، قم، نداي سروش، الطبعة الأولى.

الجيوسي، سلمى الخضراء ، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، (1997م)، بيروت، المؤسسة العربية للدرسات والنشر، الطبعة الأولى.

الحسين، قصي، الموت والحياة في شعر المقاومة، لاتا، بيروت، دار الرائد العربي، بلا طبعة.

رفيعي، علي محمد، بيدارگري در علم و هنر: شناختنامه طاهره صفّارزاده (شاعر، نظريه پرداز، مترجم، دين پژوه و عارف ايراني)، (1386ش)، طهران، هنر بيداري، بلا طبعة.

روزبه، محمد رضا، ادبيات معاصر ايران شعر روزگار، (1381ش)، طهران، بلا طبعة.

زرقاني، مهدي، چشم انداز شعر معاصر ايران، (1384ش)، طهران، ثالث، الطبعة الثانية .

السوافيري كامل، الأدب العربي المعاصر في فلسطين، لاتا، القاهرة، دار المعارف، بلا طبعة.

شرارة، عبداللطيف، فدوي طوقان دراسة تحليلية، (1964م)، بيروت، دار صادر و دار بيروت، بلاطبعة.

الشيخ، غريد، فدوى طوقان شعر والتزام، (1994م)، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.

صفار زادة، طاهرة، حركت و ديروز، (1357ش)، طهران، رواق، الطبعة الأولى.

ـــــــــ ، بيعت با بيداري، (1386ش)، طهران، هنر بيداري، الطبعة الرابعة.

ـــــــــ ، روشنگران راه، (1384ش)، طهران، برگ زيتون، الطبعة الأولى.

ـــــــــ، سد و بازوان، (1365ش)، شيراز، نويد، الطبعة الثانية.

ـــــــــ ، طنين در دلتا، (1387ش)، طهران، تكا، الطبعة الأولى.

طوقان فدوى، رحلة جبلية رحلة صعبة، (1988م)، الأردن، دار الشروق، الطبعة الثالثة.

ـــــــــ ، الأعمال الشعريّة الكاملة، 1993م، المؤسسة العربية للدرسات والنشر، الطبعة الأولى.